الزهاوى

للاستاذ أكرم زعيتر

كنت فى عداد الذين احتشدوا لتأبين الكاظمى الشاعر فى بغداد وأرهفوا آذانهم يستمعون إلى الزهاوى الشاعر المتفجع المتوجع.

جاء الزهاوى يومئذ يتوكأ على عصاه فى جسم متهدم يصارع العلل ويناجز الأدواء. وصعد إلى مرزح الخطابة وجلس على كرسى ووقف خلفه شابان حرصا حين شرع يلقى قصيدته على أن يمسكا بذراعيه إمساك الشفيق الذى يحذر أن تجمح العاطفة بالشاعر فيثور وينهض من مقعده وهو لا يقوى على الوقوف فيصيب الجسم الذى ترادفت عليه الأسقام أذى شديد

راح الزهاوى يلقى قصيدته بصوته المتهدج، ونغمته التى انفرد بها، واضطرابه الجسمانى حتى وصل إلى قوله:

الكاظمى قد اعتنى ببلاده وبلاده بحياته لم تعتن

فنهض، وهاج، وتلظى قلبه الفتى يوشك أن يودى بجسمه المتهدم لولا حذر الشابين، ثم أنهى الزهاوى نشيده:

يا بلبل الشعراء مالك صامتا من بعد تغريد بشعرك مشجن
قد سرت قبلى للردى متعجلا ولعلنى بك لاحق ولعلنى!

وردد الشطر الأخير نشيجاً مؤثراً: ولعلنى بك لاحق ولعلنى! التفت إلى صديق يجلس بجانبى فاذا بد معه يترقرق وقلت: أرأيت يا صديقى؟ إن الزهاوى يرثى نفسه فى قصيدته، إن هواجسه تنم عن دنو أجله!! قال: صدقت ولكن شعره اليوم فيه قوة وفيه حياة! قلت: إنها خفقة الذبالة الأخيرة كنذر بانطفاء السراج؛ إننى مزمع على مغادرة بغداد قريبا وأحس برغبة ملحة تهيب بى إلى زيارته غداً زيرة الوداع الذى لا لقاء بعده. فاذا تقول؟ قال: ذلك ما أبغى

وانطلقنا فى اليوم التالى إلى بيت الشاعر، ودخلنا عليه فاذا به جالس على فراشه يتكىء على وسادتين، فرحب بنا وسر بزيارتنا؛ وكان أول ما حادثناه سألنا عن وقع قصيدته فى رثاء الكاظمى، فأعربت له عن أثرها فينا وقلت: إننى عائد إلى فلسطين وأود أن أدون فى مفكرتى ما يدور فى هذه الزيارة من حديث! قال الزهاوى: حسن وهل اطلعت على «الأوشال»؟ كنت أظن أن عظمى رق وأن زمنى لن يمتد بى كثيراً فسميت مجموعة قصائدى «الأوشال»، ولكننى نظمت بعدئذ بعض القصائد وهى آخر ما أنظم، وجمعتها فى ديوان صغير سميته «الثمالة»، والثمالة آخر ما أنظم فى هذه الدنيا التى أرانى تاركها قريبا. قلت: وهل غير الثمالة للأستاذ شعر لم يطبع؟ قال: أجل إنه ديوان فى... وأحسب أنه لن ينشر فى القرن العشرين؟ قلت وما عمر الأستاذ؟ قال: أنا فى السنة الثانية والسبعين بالحساب الشمسى وفوق الأربعة والسبعين بالحساب القمرى!

وهنا أحس الشاعر بالألم وأخذ يئن، فوجمنا، ولكنه قطع وجومنا بقوله: لكل جريح أنة، وصمت قليلا ثم قال: نظمت قصيدة لتتلى فى تكريم الدكتور حسين هيكل لمناسبة تأليفه «حياة محمد»، ونادى خادمه فناوله كيساً انتزع منه القصيدة وتلاها علينا ثم استأنف الحديث. وطالما كنت أنشر قصائدى فى السياسة الأسبوعية وحدثنى طالب أن مئات النسخ من السياسة كانت تباع فى دار العلوم بمصر حين تنشر لى فيها قصيدة؛ وطالما احتدم الجدل وتعارك الطلاب (وتباسطوا) بسبب انقسامهم إلى فئتين: واحدة تؤثر شوقى على، والأخرى تؤثرنى على شوقى! قلت:

وتطرق الزهاوى فى حديثه إلى بعض أدباء بغداد الذين يحاولون انتقاصه فندد بهم وحمل عليهم حملة شعواء، ثم تحدث عن صفات الشاعر التى هى فى نظره استعداد ذاتى ومادة تتألف من ثقافة ولغة ثم طول ممارسة. وسألته عن خير قصائده فقال: أكو (يوجد) أكثر من أربعين قصيدة كلها (زينات): خذ مثلا قصيدتى «هواى» ومطلعها: أذكرى إذ كنا صغيرين نلعب! وخذ قصيدتى فى الغروب وقصيدتى فى الطلوع إنهما عصريتان جديدتان، أما التصوير المؤثر الجميل ففى قصيدتى: ومتى تخر أم لا؟ ومطلعها:

يا ابنة الهم إن غرفتك القلـــب فلا تخرجى إلى الأبواب

إن هذه القصيدة بديعة، بديعة!

وحدثنا عن رأيه فى بعض الشعراء، فإيليا ابو ماضى يحلق أحياناً فى السماء عالياً ويهبط أخرى، أما أحمد محرم فيمتاز شعره بجزالته ولكنه مشوب بالتقليد، وأما الصافى فحبذا لو اتسع